. وكادوا أن يعهدوا وجهه كجزء لا ينفصل عن القرية كلها : وجهه المربع يعترضه حاجبان يتصلان ببعضهما بأخدود يعين طرف أنفه العلوي ،

 وأنفه المفلطح تدور بأسفله دائرتان واسعتان فوق شارب رمادي كثيف ،

 . أما ذقنه فلقد كانت عريضة حادة ،

 بردت رقبته الثخينة بردة .

 إن سعيد الحمضوني نادراً ما يتكلم عن ماضيه ،

 وما ينفك يعتقد أن غداً سيكون أحسن من اليوم ،

 بشيء كثير من المبالغة ،

 أخبار سعيد الحمضوني أيام كان يقود حركات ثورية في ۱۹۳۹ ،

 يقولون - هناك في القرية - إن سعيداً أطلق سراحه من المعتقل لأنه لم يدن .

 . ويقال إنه لم يقبض عليه بعد ،

 ويربط الصبيان بوجهه كل أحاسيسهم

وتخيلاتهم التي يرسمونها للرجل الممتاز .

 وليد المغامرة القاسية .

 . لقد عاد سعيد مؤخراً من يافا ،

 وأحضر معه رشاشاً من طراز الماشينغن » ،

 كان قد قضى قرابة أسبوع كامل يجمع ثمنه من التبرعات ،

 ومع أن سكان السلمة كانوا على يقين كبير أن ثمن مدفع من هذا الطراز لا يمكن أن يجمع من التبرعات ،

 فلقد آثروا أن يسكتوا ،

 لأن وصول المدفع الرائع أهم بكثير جداً من طريقة وصوله ،

 فالقرية في أشد الحاجة إلى أي نوع من أنواع السلاح ،

 فكيف إذا حصلت على سلاح من نوع جيد ؟ لقد عرف سعيد الحمضوني ماذا يشتري ! إن هذا المدفع ،

 مدفع « الماشينغن » ،

 كفيل برد أي هجوم يهودي مسعور ،

 إنه نوع راق من السلاح ،

 والقرية في أشد الحاجة إليه .

 . فلماذا يفكرون في طريقة وصول المدفع ؟ ولكن سكوت رجال السلمة ،

 لقد بقيت المشكلة بالنسبة لهن تلح إلحاحاً قاسياً ،

 ولما لم يجدن من يدلهن على حقيقة الأمر ،

 استطعن أن يقنعن أنفسهن أن سعيد الحمضوني كان قد سلم في ثورة ۱۹۳۹ مدفعاً من هذا الطراز أبلى من خلفه بلاء حسناً ،

 ثم خبأه في الجبال إلى أن آن أوان استعماله من جديد .

 ولكن التساؤل بقي متضمناً في أعمق أعماق سكان السلمة ،

 لم يكن من اليسير أن يجمع الإنسان ثمن مدفع من

طراز الماشينغن .

 . إذن فمن أين أتي سعيد الحمضوني بهذا المدفع ؟ نعم .

 من أين ؟ المهم أن هذا المدفع الأسود صار قوة هائلة تكمن في نفوس أهل السلمة ،

 وهو يعني بالنسبة لهم أشياء كثيرة ،

 أشياء كثيرة يعرفونها ،

 وأشياء أكثر لا يعرفونها .

 . ولكنهم يشعرون بها ،

 . إن كل كهل وكل شاب في السلمة ،

 صار بربط حياته ربطاً وثيقاً بوجود هذا المدفع ،

 وصار يستمد من صوته المتتابع الثقيل ،

 نوعاً من الشعور بالحماية .

 . وكما يرتبط الشيء بالآخر ،

 ربط الناس صورة المدفع بوجه سعيد الحمضوني المربع ،

 ولم تعد تجد من يفصل هذا عن ذاك في حديث الدفاع عن السلمة ،

 إن سعيد الحمضوني أصبح الآن ضرورة مكملة .

 كانوا يشعرون أنه أداة من أدوات المدفع المعقدة .

 . شيء كحبل الرصاص ،

 . كالماسورة ،

 متماسك لا تنفصل أطرافه عن بعضها .

 لقد صار يربط سعيد الحمضوني حياته نفسها ربطاً شديداً بوجود المدفع .

 كان المدفع يعني بالنسبة له شعوراً هادئاً بالطمأنينة ،

 شعوراً يوحي بالمنعة : فهو دائم التفكير بالمدفع ،

 دائم الاعتناء به ،

 تكاد لا تراه إلا وهو يدرب شباب القرية على استعماله ،

 ويدلهم في نهاية التدريب المكان الذي وضع فيه خرقة لمسح المدفع ،

 هذا المكان الذي سيصير - فيما بعد - معتادة .

 ومع مرور الأيام بدأ سعيد الحمضوني يتغير .

 وبدا كأنه يضمر شيئاً فشيئاً ،

 وأحست شباب السلمة أن سعيد الحمضوني صار يبدو أكبر من ذي قبل ،

 وأنه صار يفقد هذه الحركة الحية في وجهه وفي صوته .

 صامت إلى حد يخيل للإنسان معه أنه نسي كيف كان يتكلم الناس ،

 وصار شيئاً مألوفاً أن يجده الناس منطلقاً إلى جنوب السلمة ،

 حيث ركز المدفع ،

 ليجلس وحيداً بقربه إلى العشية .

 . هل كان يعتقد إنسان أنه سيرتجف كذرة من القطن المندوف على قوس المنجد ؟ لقد فتحوا عليه باب داره والصباح يوشك أن ينبلج ،

 وتضاخمت أمامه كتلة سوداء ،

 وبرز منها صوت أحد رجاله ،

 يدور كالدوامة ليبتلع كل إحساس بالوجود : - المدفع .

 . لقد أصابه العطب .

 . إن ماسورته تتحرك بغير ما توجيه .

 وأحس سعيد الحمضوني بقوة جبارة تقتلع من جوفه شيئاً بعز كان يشعر بكل هذا وهو منطلق عبر الحقول الباهتة النائمة في آخر الليل .

 . ووصل إلى حيث كان الرشاش يتكئ كالطفل الميت على الأغصان اليابسة ،

 إلا طلقات البنادق الهزيلة ،

 تحاول عبثاً الوقوف في وجه الهجوم .

 وهز سعيد الحمضوني رأسه وكأنه يواسي نفسه بمصاب ابنه ،

 ثم فكر أن لا بد من إجراء .

 . شيء قوي كالكلابة يجب أن يمسك الفوهة الهاربة إلى بطن المدفع .

 . شيء قوي .

 . سأشد الماسورة إلى بطن المدفع بكفي .

 . لا يوجد أية دقيقة لتضيع في الكلام .

 . دعنا نجرب .

 . - اطلق ! - سيرانا اليهود وأنت فوق الحفرة .

 - اطلق ! - ستحرق كفيك بلهب الرصاص .

 . - اطلق .

 . اطلق ! وبدأ المدفع يهدر بصوته المتتابع الثقيل ،

 ومع صوته المحبوب شعر سعيد الحمضوني بنفسيته التي تغذت طويلاً بالثورة والدم هي ذي تتقدم إليه بتؤدة ،

 . وكم هو جميل أن يختار الإنسان القدر الذي يريد .

 . وسمع صوته من خلال دقات الرصاص - اسمع أريد أن أوصيك وصية هامة .

 . وعاد يصيخ إلى المدفع واستخلص من صوت الرصاص ثقة جديدة ليتابع وهو يحاول أن يمضع ألمه : - قرب قرية أبو كبير ،

 . عرفته ؟ حسناً ! لي هناك مبلغ جيد من المال ،

 . أن أرجع الأقبضه بعد أن يفحصوا الدم .

 . في كل مرة يقولون أنهم يريدون أن يفحصوا الدم كأن دم الإنسان يتغير في خلال أسبوع ونصف .

 . إن ثمن المدفع لم يسدد كله .

 ستجد اسم التاجر في داري .

 لقد دفعت قسماً كبيراً من ثمنه من تبرعاتكم .

 . هل تعرف أنهم يشترون الدم بمبلغ كبير ؟ لو عشت شهرين فقط ؟ شهرين آخرين لاستطعت أن أسدد كل ثمنه .

 . إنني أعطيهم دماً جيداً .

 . خذ حسن وحسين واذهب إلى ذلك المستشفى .

 . ألا تريد أن يبقى المدفع عندكم .

 . إن حسن وحسين .

 . يعرفان كيف يذهبان إلى هناك .

 . إن دماءنا جميعاً جيدة .

 . جيدة جداً .

 . القضية قضية الحليب الذي رضعناه .

 . أريد أن أقول لك شيئاً آخر .

 . إذا تراجع اليهود هذه المرة .

 . تكون آخر مرة يهجمون بها من هذه الناحية .

 . فعليكم أن تنقلوا المدفع إلى الشمال .

 . لأن الهجوم التالي سيكون من هناك .

 . واشتد شعوره بالنار تلسع كفيه بقسوة .

 . وأحس إحساساً ملحاً أنه لو كان في صحته العادية لاستطاع أن يقاوم أحسن من الآن ،

 وراوده شعور قاتم بالندم على أنه سلك في شراء المدفع ذلك السبيل ،

 ولكنه أحس إحساساً دافقاً أن المدفع طرف آخر من الموضوع ،

 . إن وجوده يحافظ على أهميته قبل أن يموت هو ،

 . فأغمض عينيه ،

 وحاول جاهداً أن يحرر نفسه من سجن ذاته كي ينسى ألمه .

 . فأسقط ركبته على الأرض في ثقل .

 . وعلى صوت الطلقات المتقطعة بانتظام وعنف .

 . أحس سعيد الحمضوني بأشياء كثيرة .

 . كأنها ملايين الأبر تدخل في شرايينه فتسلبه ما تبقى من دمه ،

 ثم شعر بأطرافه جميعها تنكمش كأنها ورقة جافة في نهاية الصيف .

 . وبجهد شرس حاول أن يرفع رأسه ليشم الحياة ،

 إلا إنه وجد نفسه فجأة في تنور من ذلك النوع الذي يكثر .

 والذي عاش إلى جواره فترات طويلة من صباه ،

 وجد نفسه في ذلك التنور جنباً إلى جنب مع الأرغفة الساخنة تحمر تحت ألسنة اللهب ،

 تطير عن رغيف المرقوق وتلتصق على شفتيه ،

 وشعر بيد قاسية تشد رأسه إلى أدنى .

 . إلى أدنى .

 . إلى أدنى .

 . فيسمع لفقرات رقبته صوتاً منتظماً ثقيلاً وهي تتكسر تحت ثقل رأسه .

 . وأحس أنه فعلاً لا يريد أن يموت ،

 وأعطته الفكرة دفقة أخرى من الحياة .

 . فاكتشف أن صوت تكسر فقرات رقبته هو صوت الرصاص الذي ينطلق من المدفع الرشاش ،

 وشعر بمواساة من نوع غريب ،

 مواساة تشبه تلك التي يراها الوالد في ولد عاش بعد مصرع أخيه ،

 وخرج من التنور لكنه شعر أنه لم يلمس الأرض بقدميه .

 وشيعته القرية كلها إلى مقره الأخير .